كيفية مقاربة التاريخ على المستوى العربي

الأستاذة الدكتورة سمر بهلوان*

الملخص

تحتل دراسة موضوع المقاربة التاريخية على المستوى العربي أهمية خاصة في تاريخنا المعاصر الذي يشهد نهوضاً معرفياً وتكنولوجياً واسعاً في مختلف المجالات، مما يساعد على إعادة النظر والتدقيق في الوثائق والأوابد التاريخية، والكشف عن حقائق تاريخ الشعوب، ولاسيَّما ما تعرض منها للتزوير والتأويل. بناء على تلك المعطيات العلمية، يمكن دراسة التاريخ العربي الذي بدأ تشكله مع البدايات الأولى لوجود الإنسان باختراعاته الحضارية في منطقة الشرق المتوسط "الوطن العربي" التي تتوسط قارات العالم، مما أسهم في انتشار منجزات شعوب تلك المنطقة واختراعاتهم وثقافاتهم، كالأكاديين والبابليين والآشوريين والمصريين والآراميين والفلستينيين والكنعانيين، المادية والروحية بين الشعوب الأخرى في مختلف مناطق العالم، ولاسيَّما ما أنجزته ثورة التدجين والزراعية ومن ثم اختراع الأبجدية، فضلاً عن فنون الآداب العديدة والقوانين والتشريعات التي نظمت حياتهم.

إنّ وجود العرب في تلك المنطقة وما توصلوا إليه من إنجازات حضارية أسهم في خلق مقومات مشتركة فيما بينهم، من أرض وتاريخ ولغة وعقائد دينية..وغيرها، وسمات قومية واحدة، حافظت على وجودهم وفق هوية واحدة. مما ساعدهم على

* قسم التاريخ- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة دمشق

الحفاظ على وجودهم الحضاري وصيرورتهم رغم الصعوبات التي برزت على المستوى الداخلي من جهة، والأطماع الاستعمارية الخارجية، الفرس والروم وغيرهما..، من جهة أخرى. إلاّ أن موقع الوطن العربي الاستراتيجي ساعد على الحفاظ على دور العرب الحضاري، حيث قامت حضارات مميزة على أطراف الجزيرة العربية، في الجنوب سبأ وحمير ومعين وفي الشمال والوسط كندة والغساسنة والمناذرة وتدمر. وبحكم تلك الجذور التاريخية العربية البعيدة المدى، استطاع الإسلام في العصور الوسطى، أن ينتشر من قلب الجزيرة العربية إلى مختلف مناطق العالم، ويعيد البناء الحضاري العربي الإسلامي. في وقت كانت فيه أوربا تغوص في الظلام والجهل، لكنّهم تمكّنوا من الأخذ عن العرب المسلمين وسارعوا إلى النهوض بدولهم مستغلين ظروف التراجع العربي، فشكلت حملات الفرنجة خطراً كبيراً على مناطق الوطن العربي، إلى جانب وجود أطماع أجنبية أخرى أدت إلى مزيد من التراجع العربي وصولاً إلى القرن الرابع عشر الميلادي. ومع ذلك بقي العرب محافظين على الهوية الذاتية للأمة العربية، وهي على أبواب مرحلة جديدة من التاريخ العربي الحديث.

كيفية مقاربة التاريخ على المستوى العربي
مخطط البحث:
مقدمة
1- أهداف كتابة التاريخ العربي وإشكالياته وسماته العامة.
2-الدور التاريخي العربي في العصور القديمة.
3- الزمان والمكان في جذور التاريخ العربي.
4- سمات الأمة العربية وخصوصيتها عبر التاريخ.
5- الحدود الجيوحضارية للوطن العربي.
6- الدور التاريخي العربي في العصور الوسطى.
7- نتائج البحث.
8- المصادر والمراجع.

مقدمة:

إن الخوض في دراسة موضوع كهذا، معني بكيفية مقاربة التاريخ على المستوى العربي، في تلك المرحلة من تاريخنا المعاصر، الذي يشهد نهوضاً معرفياً واسعاً وشاملاً في مجالات العلوم والتقانة كلّها، النظرية منها والتطبيقية، يتطلب الدقة العلمية والموضوعية البحثية، وإعادة النظر بكثير من المفاهيم والمضامين المتعلقة بهذه العلوم على ضوء المستجدات ذات الصلة. و"تبرز الضرورة في أقصى درجاتها في علم التاريخ"[1]. لأنه ثبت لدى الجميع، وتحديداً المتخصصين، أنّه علم موسوعي شامل للشؤون الحياتية كلّها، ومعنيّ بكل ما يتعلق بالتطورات والمستجدات العلمية العامة والخاصة لحياة البشر.

ومن المفيد ذكره، أن ما قدمته علوم الإنسان أي "الانتروبولوجيا" الطبيعية والثقافية.[2] ذات الصلة المباشرة بعلم التاريخ، وخاصة علمي الآثار واللغات،مع غيرهما من العلوم الأخرى المساعدة، قد أدى إلى تغيير كثير من المعلومات التاريخية المتداولة منذ مئات السنين، بل وقلب بعضها رأساً على عقب، مما فرض ضرورة إعادة النظر بها على ضوء المستجدات. وهذا التغيير يتطلب، من باب الواجب الإنساني، القيام بتصحيح ما يجب، والتصدي للتزوير والتحوير الذي ارتكب عن غير قصد من قبل بعض الباحثين الناسخين دون علم ودراية أو مسؤولية ذاتية كانت أوموضوعية. أو عن قصد من قبل بعضهم الآخر من الباحثين المغرضين

1 - محمد نجاح ،علم التاريخ إشكاليات ومضامين، بحث في مجلة المعرفة، العدد 384، ايلول 1995، ص 38 .

2 - الانتروبولوجيا الطبيعية، تعنى بدراسة تطور الإنسان القديم والحديث، والعمليات التي أدت إلى تطورهما. أما الانتروبولوجيا الثقافية فتعنى بدراسة مختلف الثقافات التي أنشأها الإنسان عبر التاريخ، وتتفرع إلى أربعة اختصاصات هي: علم الاثار، والأعراق البشرية، والانتروبولوجيا الاجتماعية، وعلم اللغات. عن موسوعة المورد .

اللاموضوعيين، لأسباب تعصبية مصلحية مرتبطة بأهداف سياسية، وقومية، ومذهبية، وفئوية، وعنصرية، واستعمارية وغيرها.....

وعلى هذا، فإن ابن خلدون، ومنذ القرن الرابع عشر الميلادي، كأحد أهم رواد علم التاريخ والمجتمع، ولاسيَّما إسهاماته المهمة فيما يخص "أنسنة التاريخ" التي قدم فيها التاريخ برؤية جديدة، ورأى فيه فناً[3]، إذ لم يكتف بدراسة "ظاهره" من حيث هو "عرض وأخبار"[4] فقط ، وإنما ركّز على "الباطن" فيه من حيث هو " نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق"[5]. فقد رأى ابن خلدون في هذا "الباطن" المعنى الحقيقي للتاريخ، من حيث هو بحث موضوعي في حقيقة الأحداث.. وتحليل عميق لها واستنباط علمي لمعرفة القوانين العامة لحركتها الداخلية، أي لمعرفة العوامل الأساسية والفرعية التي تسهم في صنعها. ورأى في الحدث العمراني، أي الاجتماعي، وهذا أشد ما يكون صلة بعلم التاريخ، مجموعة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وتوصل إلى مقولة القوانين الناظمة للحدث.[6] ورأى فيه استمرارية في الحاضر، أي نظر إليه في صيغته التراثية. وتوصل ابن خلدون إلى فكرة التطور التاريخي النوعي[7]. وباختصار كان ابن خلدون يحمل في تعامله مع التاريخ، منذ ذلك الحين، كثيراً من ملامح منهجية "الجدلية التبادلية التاريخية التراثية"[8].

3 - ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، دون تاريخ، ص 4 .

4 - المصدر السابق، ص3 – 4.

5 - المصدر نفسه.

6 - المصدرالسابق، ص 13-14، كذلك انظر، محمد الطالبي، منهجية ابن خلدون، دار الحداثة، بيروت، 1981.

7 - ابن خلدون، المصدر السابق، ص28.

8 - مروة حسين، النزعات المادية في الفلسفة الإسلامية،ج1، ط 4، دار الفارابي، بيروت 1981، ص5. وطيب تيزيني، من التراث إلى الثورة، ط 3، دار دمشق، 1979، ص112-119.

وأخذ علم التاريخ، في المراحل الحديثة والمعاصرة، (القرن التاسع عشر حيث نهوض العالم)، يفرض نفسه ضمن المسائل الفلسفية الأهم، وبوصفه أبرز علم من علوم الإنسان[9]. وكان هذا بحكم طبيعة حركة الخلق الجذرية المتحررة التي نظّمت الفكر المعاصر عموماً، فجعلت من التاريخ " تحقيقاً لعقلانية دائمة"[10]، ولتطور جدلي مستمر[11]، ومدلولاً من الصيرورة الإنسانية بأوسع مدى، الماضي والحاضر والمستقبل، فضلاً عن أنَّه مدرسة للسياسة[12] ... بل إنّ عالمنا المعاصر في القرن المذكور، ووصولاً إلى المرحلة الحالية في بدايات القرن الواحد و العشرين، يشهد تراجع كثير من الاتجاهات المثالية القصدية وغير القصدية، كالذرية[13]، والتاريخانية[14]، والسلفوية[15]، في دراسة التاريخ لصالح الاتجاهات التاريخية الإنسانية القصدية، كالمادية التاريخية والبنيوية - التكوينية[16] وغيرها...

9 - هرنشو، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي، دار الحداثة، بيروت، 1982، صفحات 1-14-91-101.

10 - بيكون غويتان، آفاق الفكر المعاصر، نصوص مختارة لمجموعة من المؤلفين بإشراف بيكون، دار عويدات، بيروت،1965ص 323.

11 - كوفالزون و م كيللي، المادية التاريخية، المدرسة العليا، موسكو، 1962، ترجمة أحمد داوود، دار الجماهير، ط1، دمشق1967.

12 - سيمون بيير هنري، الفكر والتاريخ، ترجمة عادل العوا، منشورات المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم، المطبعة الهاشمية، دمشق 1963، ص 108-116 وهرنشو، المرجع السابق، ص 102-116 .

13 - الذرية، تقوم هذه المدرسة بتفسير الكلية التاريخية، التي تشكل الأحداث، في مرحلة ما، على أنها ليست سوى تجميع لوحدات متجانسة ومنغلقة على ذواتها، وتنظر إلى الأحداث كعناصر معزولة لا صلة بينها و لا رابطة.

14 - التاريخانية، هي رؤية التاريخ بحسب وجهة نظر التجريبية التي تفهمه على أنه تغييرات، أو تحولات مصفوفة في نظام من التعاقب الزمني دون أية صلة تربطها أو علة تفسر تعاقبها.

إن أصحاب تلك الاتجاهات الإنسانية الموضوعية، رأت وما زالت، أن التطور التاريخي هو نتاج حركة التفاعل الإنساني، ووعي البشر لواقعهم، وسعيهم لتغيير الظروف الضاغطة، وهذا يعني أنهم القادرون على التغيير، لأن التاريخ من صنعهم وقد تمّ وفق ظروف معينة حكمتها القوانين الموضوعية العامة. وبذلك يمكن القول: إنّ التطور التاريخي هو " عملية موضوعية مقوننة"[17].

إنّ ما سبق، يضعنا أمام لازمتين مهمتين في دراسة التاريخ عامة والتاريخ العربي خاصةً، هما:

1- التزام القوانين الموضوعية التكوينية، لأنها تحدد الاتجاه العام لتاريخ المجتمع الإنساني وتحدد بنية التشكيله الاقتصادية – الاجتماعية لديه.

2- فعل الإنسان الواعي ونشاطه، الذي يعنى بمسيرة التاريخ بتفاصيلها وجزئياتها كلّها. وهذا ما نتج عنه الخصوصيات الذاتية لكل مجتمع من المجتمعات البشرية. وفي هذا السياق أخذ الكثير من الشعوب يعمل لصالح خصوصياتها، وتحديد قومياتها، لتكون سمة القرن التاسع عشر، هي السمة القومية.

من هذا الباب، ومن هذا الفهم الموضوعي لحركة التاريخ، يمكن الولوج إلى فهم التاريخ العربي ودراسته، بمسيرته الضاربة في أعماق جذور التاريخ التي ميّزت خصوصياته الذاتية وسماته القومية، وهذا ما ينطبق على تاريخنا العربي.

---

15 - إدخال الواو على أي مصطلح يعني إعطاءه الصيغة اللغوية التي اتفق عليها كثير من الباحثين للإشارة إلى استخدامه بمفهوم أو مضمون خطأ والمصطلح نفسه دون واو زائدة عليه " السلفية" يشير إلى استخدامه بمفهومه ومضمونه الصحيح.

16 - باسكيز ادولفو، البنيوية والتاريخ، ترجمة مصطفى المناوي، دار الحداثة، بيروت 1981، ص29-44.

17 - كوفالزون، مصدر سابق، ص191.

أولاً- أهداف كتابة التاريخ العربي وإشكالياته وسماته العامة:

إنّ البحث في موضوع التاريخ العربي، بخصوصياته الذاتية "القومية"، وصيرورة مسيرته الحضارية عبر العصور، وفق الأسس العلمية التي سبق ذكرها عن علم التاريخ، لتحديد الهدف، ومن ثم تحديد موقف صحيح ورؤية صادقة عن هذه المسيرة، يحتاج إلى المزيد من التدقيق والتبصرفي السمات والإشكاليات وما يحيط بهما، ولاسيَّما ما أفرزته ظروف المرحلة التاريخية الحديثة والمعاصرة من متغيرات شاملة على مستوى العالم عامة، و التاريخ العربي خاصةً.

بناء على ما سبق، تبرزالإشكاليات المحيطة بالتاريخ في جوانب عدة أهمها:

- استمرار شيوع التزوير في التأريخ[18] الإنساني، ولاسيَّما العربي، مثل ما يحدث اليوم في فلسطين العربية من عمليات تزوير تطال الأثر والبشر، وما جرى بالأمس القريب في العراق، من قهر وتزوير في حقائق التاريخ المادية، بهدف طمس الهوية العربية الحقيقية، وتشويه صورتها بآلة القوة والهيمنة السياسية والاقتصادية والعسكرية وغيرها...

- ثمّ إشكالية اختلاف المدارس الفكرية في رؤيتها لعلم التاريخ التي تحددها، غالباً، المصالح الاقتصادية والسياسية للقوى المتصارعة في العالم.

- لكن الإشكالية الأهم في هذا السياق، مايتعلق منها بالمضمون الحقيقي لعلم التاريخ، سواء ما يخص تدوين مادته في تتبع حركة تطوره، والمعبّر عنها باصطلاح التاريخ ودلالته "فعل التدوين". أوفي مادته المستخدمة في الدراسة بحد ذاتها، والمعبّر عنها باصطلاح "التأريخ". إلى جانب طرائق العمل المنظمة للمعرفة والكتابة، أي التعامل مع الوثيقة، والمعبّر عنها "بمنهجية البحث التاريخي". إذ إنَّ الخلط وعدم

18 - التأريخ : بالهمز، ويقصد بها مادة علم التاريخ المدروسة. بينما التاريخ بالألف اللينة فهي تعبير عن حوادث الماضي وسير حركته.

التمييز بين العناصر الثلاثة كفيل بتشويه هذا العلم، والحول دون تحديد المضمون والتوصل إلى الحلول اللازمة، على ضوء مستجدات العصر، وتقديم المعالجة الموضوعية الصحيحة.

- وإذا ما تمّ التعامل مع التاريخ ومضامينه ودلالاته بالموضوعية المطلوبة والصحيحة، يتضح أنّه بحق ضمان لصيرورة تطور الإنسان والحياة والكون في مختلف المراحل الماضي والحاضر والمستقبل، وهذا ما يوضح في الوقت ذاته، حقيقة الدور الإنساني عبر مسيرة الحياة، وفق شمولية زمنية مستمرة بين عناصر الزمن الثلاثة التي سبق التنويه إليها، وهذه السمة "الشمولية الزمنية" يقرّ بها أصحاب الاتجاه التاريخي الجدلي الصحيح، على عكس أصحاب الاتجاهات التاريخانية المتمثلة بالمدرسة التقليدية الماضوية التي تختزل أبعاد التاريخ كلّه في بعد واحد، فيكون التاريخ بالنسبة إليها هو "الماضي ذاته"[19]. ومن الملاحظ أن تلك الاستمرارية الزمنية تنطبق أيضاً على جزئيات التاريخ سواء طالت هذه الجزئية أم قصرت وبحسب الخصوصية الذاتية والموضوعية لكل جزء منها.

- إنّ سمة الشمولية تلك لاتقتصر على الزمن وحده، إنَّما هي شمولية الكون والحياة، بحكم أنها هي بحد ذاتها مضمون مسيرة الحياة البشرية وتطورها بأبعادها كلّها المادية والفكرية. فضلاً عن سمة القوننة وجدلية حركة التاريخ، أي خضوعها للقوانين العامة للتطور، مثل، القوانين المتعلقة بتطور ثنائية المادة والفكر، وثنائية العام والخاص، والقديم والجديد، وبطبيعة العلاقة بين كل ثنائية منها، وهذا ما يؤيده أصحاب الاتجاه التاريخي الجدلي الصحيح.

وعلى ضوء هذا الفهم للتاريخ ومضامينه ودلالاته ومفاهيمه وخصوصياته، وما سبق إيضاحه عن بعض المصطلحات، يمكن للبحث أن يأخذ مجراه في مسار التاريخ

19- زريق قسطنطين، نحن والتاريخ، ط 5، دار العلم للملايين، بيروت 1981، ص 13- 14.

العربي والحكم عليه، منذ البدايات الأولى زماناً ومكاناً وحركة وتفاعلاً وعطاءً وانتكاسات، وصولاً إلى الواقع الذي نعيشه اليوم.

ثانياً- الدور التاريخي العربي في العصور القديمة:

استناداً إلى الأسس العلمية المعنية بمسيرة التاريخ العربي، وفق ما سبق ذكره، تؤكد أن العروبة كواقع وكحدث اجتماعي قد بدأت في الماضي واستمرت إلى الحاضر، وأخذت بعدها الزمني التطوري ضمن حركة التاريخ في تطورها واستمراريتها وتغيّرها الدائم المتفق مع الواقع المعني بظروف كل مرحلة من المراحل، (بدءاً بالشكل البدائي ومروراً بشكل تجمع العشيرة ثم القبيلة، ثم الشعب، وانتهاءً بالأمة). وهذا يعني أن العروبة كواقع اجتماعي بشري واحد ارتبط وجودها بوجود هذا الواقع الاجتماعي التطوري البشري في مختلف أشكال تجمعاته التطورية المذكورة، مما يدل قطعاً على أن "هوية الأمة هوية تاريخية، والتاريخ هو الذي يشكلها"[20]، وأنّ "علاقة الأمة بالقومية العربية علاقة الجزء بالكل"[21].

إنّ المسيرة التاريخية الطويلة للأمة العربية وفكرها القومي، لم تكن من العدم دون مقدمات، فقد تشكلت بنيوياً، و أتت نتاجاً مادياً وروحياً خاصاً بها "عربياً"، أخذ شكل الأمة العربية، لكنه بقي ينقصه الكيان السياسي الواحد، أي الدولة العربية الواحدة، ليأخذ كامل أبعاده القومية.

وممَّا لابدَّ من ملاحظته، أن واقع الأمة العربية الحالي، حيال الفكرة القومية لديهم، ووعيهم العفوي لانتمائهم إلى عروبتهم التي توحد بينهم، وسعيهم إلى الهدف في الوصول إلى مرحلة القومية المنظمة قد استغرق زمناً طويلاً، بسبب القدم التاريخي

20 - بيطار نديم، حدود القومية، نقد عام، دار الوحدة، بيروت،1982، ص19.

21 - محمد نجاح، القومية العربية في تاريخنا القديم، الجذور والصيرورة، مجلة عالم المعرفة دمشق، العدد356، أيار 1993 ، ص 45.

الطويل للوجود العربي من جهة، وللنمو والتطور البطيء المتقطع الذي عاشته ريثما يتم ترسخها تماماً. وذلك متفق مع أنّ صيرورة التطور كانت وما تزال "صيرورة وحدة وتمايز، صيرورة تواصل وقطيعة"[22]. لأن فعل القوى المضادة غالباً ما كان يضطرها إلى نهج أساليب حماية وترقب، ريثما تسمح الظروف بالإعلان عن نفسها وعن هدفها لتتابع مسيرتها من جديد. وهكذا تمدّ جذورها أفقاً وعمقاً في بنية المجتمع. وبناء على هذا، فما الزمان والمكان في تشكل التاريخ العربي؟.

ثالثاً- الزمان والمكان في جذور التاريخ العربي:

أجمعت المعطيات التاريخية والتأريخية وأصول البحث فيها إلى الآن، أن بداية التاريخ الفعلية هي بداية وجود الإنسان العاقل ووجود تجمعاته الإنسانية، وكما أجمع الكثير من المستشرقين الموضوعيين والمعنيين، أنّ المشرق العربي القديم هو الموطن الأول للإنسان العاقل، وما أكدوه أن تحول إنسان نياندرتال في سورية الجنوبية "فيزيولوجياً" وحضارياً نحو الإنسان العاقل، هو الجد المباشر للإنسان الحالي وهو نفسه صانع الحضارة بمعناها الشامل[23]. إذْ أخذت سلالة هذا الجد تتابع استمراريتها الاجتماعية في تجمعات عديدة، فأقامت قرى الصيادين الأولى في البلدان السورية منذ نحو سبعة عشر ألف سنة[24]. وتمكّنت من تأمين احتياجاتها المادية والروحية، فأحدثت ثورة التدجين والزراعة، لتكون المنطلق الأساس للحضارة السورية- الرافدية- المصرية الشاملة في مختلف الميادين الحياتية، الاقتصادية والسياسية والاجتماعية و الثقافية، وهذا ما مكّنها أيضاً من اختراع كثير من العلوم والفنون والآداب، وإنشاء المؤسسات الحكومية والسلطوية والاقتصادية والنقابية.. بما في ذلك المكتبة والأرشيف ومجلس الشيوخ والمجالس الاستشارية والقضاء والتشريع وغيرها. فكانت حضارة

22 - تيزيني طيب، الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى، دار دمشق، 1986، ص218.

23 - محيسن سلطان، عصور ما قبل التاريخ، دار المستقبل، دمشق، 1986، ص61.

24 - المرجع السابق، ص 193-217.

أكاد وسومر وبابل وآشور وإيبلا وماري وفينيقيا ومصر وغيرها.. لتكون تلك الحضارات البطانة والأساس للحضارات العالمية كلّها، بما فيها اليونانية الذي كان ما أخذته عن هذه الحضارة أكثر بكثير مما أبدعته[25]، وهذا باعتراف المستشرقين، إنها حضارة المثلث البشري العراق وسورية ومصر.

وللبرهان عن حقيقة جذور هذا الواقع العروبي، قدمت بعض العلوم المساعدة في علم التاريخ مثل علم اللغة والكتابة والاجتماع وفروعها المتصلة بعلم الأقوام والآثار والجغرافية، وما كتبه المستشرقون في دراساتهم عن العرب كثيراً من البراهين والقرائن المثبتتة عن حقائق أصول التاريخ العربي وجذوره. وأتت براهينها منطبقةً ونهج التطور التاريخي العلمي بقوانين حركته، وفهم كل ظاهرة أوحدث فيه ومدلولها وبعدها الزماني والمكاني، وهوما استلزم الإفادة من مدونات التاريخ المسجل كمؤلفات المؤرخين أو ما تركته المكتشفات الآثارية، والكتب السماوية لما تحتويه من قيمة تأريخية كبيرة.

إنّ هذه العلوم قد أكدت عروبة المنطقة، أرضاً وبشراً، وأن سكانها منذ بدء حياة استقرارهم وبناء حضارتهم المادية والروحية، تكلموا العربية وبلهجات حواضرهم التي أسسوها وأبدعوا ونهضوا بها إلى مستويات متطورة جداً في مختلف الميادين، كالآراميين والفلسطينيين والكنعانيين، أي الفينيقيين الذين يعود أصلهم كما يؤكد هيرودوت إلى الخليج العربي[26]. وعروبة الفينيقيين مثلها مثل عروبة العمالقة والأكاديين والبابليين والآشوريين والمصريين والبربر، وهو ما ذكره المؤرخ الكبير

25 - روسي بيير، ومجموعة من الباحثين، Rossi. La Cite Disis. Lhistoire vraie des Pierre Arabes,Paris, 1976

26 - الطبري أبو جعفر، تاريخ الطبري، المعروف بتاريخ الأمم والملوك، ط4، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت،1983ج1، ص140- 142. كما أكد ذلك مؤرخان كبيران هما ابن المسعودي وابن كثير.

الطبري في مؤلفه المعروف" تاريخ الأمم والملوك"[27] . كما أكد القرآن الكريم والتوراة، عروبة المنطقة وأقوامها، من خلال ما ورد فيه عن وجود الأقوام العربية، من سلالات الأنبياء، (بدءاً من قوم نوح، ومروراً بقوم ابراهيم واسماعيل وموسى وعيسى وغيرهم) واستمرارية التاريخ العربي آلاف السنين قبل ظهور الإسلام. (أمَّا البدو المتنقلون الذين هم جزء من شعوب تلك المنطقة فقد حافظوا على عروبتهم ولهجتهم العرباء، ولاسيَّما من بقي منهم في جزيرة العرب).

إنّ اعتماد اللغة، كعلم مساعد، في مجال البحث، ينطلق من كونها الوعاء الفكري والثقافي للمجتمع وطرائق تعامله ومؤشر امتداده وتوسعه مادياً أو ثقافياً أو روحياً.... فاللغة انعكاس حقيقي للمستوى الحضاري الذي يحققه هذا المجتمع أو ذاك. واستناداً إلى ما سبق فقد أثبتت الدراسات أنّ علم الإنسان "الانتروبولوجيا"، يقوم أساساً على علم اللغات في دراسة بنية اللغة ومفرداتها في تطورها ومتغيّراتها التاريخية من حيث التصويتية والقواعد والدلالة[28]. وأية مقارنة بين اللغات استناداً إلى علم الألسنية تقود إلى معرفة درجة القرابة أو البعد فيما بينها، وقد أثبتت الدراسات اللغوية المقارنة أن اللغة العربية قد شكلت الأساس للغات، وهو ما أكده الطبري، بأن لسان أقوامها "الذي جبلت عليه هو لسان عربي"[29] . ومثال ذلك نورد بعض الكلمات بتدرجها من العرباء (الأصل) إلى اللهجة السريانية ثم إلى اللهجة الآمورية الغربية أي لهجة ماري وفينيقيا. (أب، أبو، أبا)، (أم، أمّو، أما)، (أمة، أمتو، أمتا)، (ملك، ملكو، ملكا)، وهكذا كثير من الأمثلة الدالة على أنّ الأساس اللغوي هوعربي ومن المشرق العربي. وهذا ما لم ينكره حتى الباحثين المغرضين مثل اليهودي شلوتزر، صاحب نظرية اللغات

27 - المصدر نفسه.

28 - ده سوسير فردينان، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي و مجيد نصر، لبنان .184

29 -الطبري، المصدر سابق، ص140.

"السامية" المعلنة في عام 1781 بأن هذه اللغة هي اللغة الأم التي تكلمتها الأقوام السامية، من أكادية وبابلية وآشورية وعربية وعبرية. يلاحظ أن شلوتزر قد تجاهل كثير من الحقائق التاريخية العلمية بهدف طمس الهوية العربية لهذه الأقوام جميعها وحضاراتها من جهة، ولإبراز الوجود العبري كشعب ولغة من جهة أخرى. مع العلم بأن اللغة العبرية القديمة لم تخرج عن إطار اللهجات العربية السابقة، وكما أثبتت الدراسات العلمية الموضوعية أنْ لا وجود للغة عبرية قديمة، وأن "التوراة" "الكتاب المقدس" كانت وبحسب ما ذكر فيه نفسه "شفة كنعان" أي لغة كنعان أي اللغة الكنعانية أو الفينيقية، وأن الخط الذي كتبت به هو الخط الآرامي المربع أي أحد الخطوط العربية القديمة. عندما أرادت الصهيونية في بداية القرن العشرين أن تستكمل مقومات حركتها "ببدعة القومية"، زعمت أن ليهود العالم لغة خاصة بهم بعد قدومهم لاحتلال فلسطين، حينها قام المعنيون وعلى رأسهم اليعازر بن يهودا باختراع اللغة المدعوة اليوم باللغة العبرية واستغرقت منه ما ينوف عن الأربعين عاماً، وهي كلغة خليط من تركيبات ومفردات للهجات عربية قديمة من جهة وللغات أوربية وخاصة الألمانية من جهة أخرى، أمَّا ككتابة فقد تقصدوا أن تكون بالخط الآرامي المربع كي يسهل الادعاء بأنها "لغة عبرية قديمة" متجاهلين الفرق بين اللغة والكتابة[30].

وهكذا لو تتبعنا العروبة في المجالات العلمية التي أشرنا إليها، لما اختلفت براهينها عما أتت به اللغة العربية، وما كتب بها عن العرب وحضارتهم. وعن عروبة الوطن العربي في العصور القديمة التي بدأت مع بداية وجود الإنسان، أي إنساننا العربي فيه، وفيه تتجسد مكونات الأمة الواحدة، الأمة العربية وسماتها جميعها.

30 -أبو جبل كاميليا، العبرية الحديثة، منشورات جامعة دمشق، كلية الآداب، 2005-2006 ص11-12.

رابعاً- سمات الأمة العربية وخصوصيتها عبر التاريخ:

عبرالمسيرة التاريخية الطويلة للأمة العربية، ومن منطلق رؤية علمية واعية للتاريخ والتأريخ وأدواتهما، كما سبق ذكره، يتضح أن العرب قد خلقوا واقعاً مشتركاً خاصاً بهم ميّزهم بسمات قومية مشتركة فيما بينهم ممتدة على مدى المساحة الجغرافية التي عاشوا عليها، إنّها الوطن العربي، وما زالوا إلى اليوم. فما أهم تلك السمات الواحدة المشتركة ؟ وبناءعلى ذلك يمكن القول:

1- إنّ التشكل المجتمعي لابدَّ أن يحتاج إلى المكان والبيئة الملائمين للحياة والاستمرارية، فقد كانت نشأة العرب الأولى في مكان جغرافي واحد هو "بلاد العرب" وفي ظروف بيئية بشرية مشتركة"، أي "جمعتهم الوحدة الاثنوغرافية والاثنولوجية"[31]. إنها وحدة الجنس هذه الصفة التي تخص الأمم عامة وليس العرب وحدهم، وهذا ما يشير إليه اصطلاح (nation)، الذي يحمل في أصله اللاتيني معنى وحدة السلالة والجنس[32].

وفي الوقت ذاته، فقد أوجدت حياة الجماعة العربية في بيئة جغرافية واحدة بيئة مادية وفكرية واحدة بينهم، طبعت نمط حياتهم وتقاليدهم وعاداتهم بطابع واحد استمر مع تطور واقعهم الكمي والنوعي، وانتقالهم من شكل العشيرة (التي جمعتها وحدة الأرض والدم والملكية المشاعية والعمل الجماعي واللغة الواحدة، فضلاً عن وحدة الأعراف والتقاليد)، إلى شكل أكثر تطوراً هو القبيلة المؤلفة من وحدة عشيرتين أو أكثر[33]، ووفق الصفات المشتركة السابقة في العشيرة، و بمرور مرحلة طويلة من

31 - صباغ ليلى، المرأة في التاريخ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1975، ص16- 18.

32 - عوض لويس، معنى القومية ، الأهرام، القاهرة، 11أيار ص 2 منشورة في مجلة الفكر العربي، بيروت، عدد 4و5 ، 1978، صفحات263 ، 264، 268

33 - كوفالزون، مصدر سابق، ص 229.

التطور والانتشار والاستقرار، تغيّر شكل التجمع العربي البشري القبلي متحولاً إلى شكل الشعب، أي إلى حياة " اجتماعية اتحدت بواسطة الأرض واللغة والتكوين النفسي[34]. ومع هذا الطور الواسع زمنياً ومكانياً، وانتشاراً وازدهاراً، فقد استمرت لغتهم الواحدة، "العربية"، (وإن كانت بلهجات متعددة كما هو الحال لدى شعوب العالم كلّها حتى اليوم)، وهذا ما سبق إيضاحه.

2- أمَّا التكوين النفسي المشترك بين العرب، فقد أتى انعكاساً طبيعياً لواقعهم الاجتماعي المادي والروحي الواحد: إنه مادي، من خلال سيادة بنية إنتاجية تمثلت، بالإنتاج الإقطاعي، إلى جانب نمط التعامل التجاري، مما ميّز واقعهم الاقتصادي ببروز علاقة تعايش وصراع في آنٍ بين النمطين الاقتصاديين، والدولة كانت تمثل مصالح الأقوى منهما، فكانت تارة إقطاعية وأخرى تجارية وهكذا. كما هو روحي منذئذ، كونه أتى انعكاساً طبيعياً عن حياتهم المادية وواقع مجتمعهم. إذْ تمثلت فكرة العبادة لديهم "بالأصل الإلهي للملك، و الملك"[35]. وكلتا الفئتين سواء السياسية أم الدينية هما المستفيدتان الرئيستان من هذه الايديولوجية.. التي عملوا على انتشارها لإرضاء الآلهة وتجنب غضبها. فضلاً عن دور الأسطورة في تفكيرهم، الذي كان نتاج حاجة نفسية لمواجه الواقع الحياتي عند الفئات جميعها، وما يعترضهم من صعوبات. إذ إنَّ المضمون الفكري والروحي للأسطورة لم يعكس وحدتهم الروحية فقط وإنما عكس أيضاً وحدة واقعهم الموضوعي، لأن هذا المضمون " كان بمثابة الواقع الموضوعي ولكن بشكل أو برمز تتكري"..وتميّز ببناء فكري واحد[36].

34 - المرجع السابق، ص 222- 224.

35 - تيزيني، مرجع سابق، ص 83- 84. ومحمد أمين البغدادي السويدي، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، دار إحياء العلوم، بيروت، دون تاريخ.

36 - تيزيني، مرجع سابق، ص 162- 540. ومحمد عزة دروزة، تاريخ الجنس العربي، المطبعة العصرية، بيروت،1959.

3- ومن خلال ذلك الواقع الفكري والروحي العربي الواحد، انبثقت لديهم فكرة عبادة التوحيد، التي كمن وراءها أهداف سياسية توحيدية ضمنية، لم يكن لها أن تتجسد فعلاً واقعياً حينها، لأن الفكرة القومية مازالت في حيز اللاشعور الإرادي العربي آنذاك. ومن هنا فقد قامت محاولات توسع وتوحيد، وكان للفكرة التوحيدية أن تفرض وجود الإله الأعلى والأقوى من بقية الآلهة الأخرى، الأقل شأناً والتابعة لها، وكان على الجميع الأضعف أن يتبعوا سيطرة الملك الأقوى بقناعة ورضا، فهو ممثل الإله على الأرض، وما توحيدية ابراهيم وأخناتون وموسى وغيرهم، إلاّ شكل جديد من أشكال التوحيدية هذه، ومن ثمَّ شكل من أشكال الوحدة الفكرية الروحية عند العرب آنذاك[37].

4- ومما لابدَّ من ملاحظته، أنّ ذلك البناء الفكري والمادي العظيم للعرب لم تنقصه الآداب والفنون والقوانين والتشريعات و التنظيمات وغيرها.. فهو بحق كما يقول جاك كوفان: إنّه "بوتقة حضارية وحيدة"[38]. تلك البوتقة التي اكتملت فيها آنذاك، كثير من جوانب تكوينها التاريخي عبر زمن طويل استغرق حتى الألف الثاني قبل الميلاد، إذْ بدأ ظهور الحدود الحضارية، ممتدة دون حواجز، على مساحة حضارية لا حدود لها على مستوى العالم.

خامساً- الحدود الجيو- حضارية للوطن العربي:

أخذت مسيرة التاريخ الحضارية منذ الألف الثاني قبل الميلاد تشهد تشكل الشعوب والخصوصيات القومية (الحدود) على المستوى العالمي ومن ضمنها شعوب، الصين والهند وفارس شرقاً، واليونان والرومان والبيزنطيين[39]. والوطن العربي الذي

37 - نجاح محمد، بحث القومية العربية، مجلة المعرفة دمشق، العدد 356، أيار 1993، ص64 .

38 - كوفان جاك، الوحدة الحضارية في بلاد الشام، ترجمة قاسم طوير، ط1، دمشق 1984، ص21.

39 - براستد جايمس هنري، العصور القديمة، ترجمة داوود قربان، مؤسسة عز الدين، بيروت، 1983، ص647 وما يتبع.

احتل الوسط من قارات العالم، مطلاً على أهم المحيطات و البحار، والبحر الأبيض المتوسط تحديداً، مستمراً بإنجازاته الحضارية ومتابعاً تفوقه الاقتصادي في مختلف المجالات وخاصةً التجاري، لأنه بقي متحكماً بأهم طرق التجارة العالمية البرية والبحرية، ولاسيَّما ما بين الشرق والغرب، وطرق العطور والحرير والتوابل "بترول" العصر آنذاك[40]. هذا التفوق التجاري كان يرافقه دوماً التأثير الحضاري العربي. وهوما ذكره المستشرق الفرنسي بيير روسي بقوله: " أنّ هيرودوت كان يتعجب من تميّز أوروبا من آسية، لأنه لم يكن يرى ولم يكن مواطنوه يرون معه فيهما إلاّ الثقافة الواحدة نفسها. أجل نحن أبناء آسية، وأبناء العروبة النيلية – الرافدية، أجل نحن أولئك في الحقيقة، وهذا هو مجموع الفرضية التي ينبغي أن نطالب بها فلتتحد الكليشات التي تعم في كل مكان"[41].

حقاً، استطاع العرب من موقع وطنهم العربي المتوسط للعالم، (في تلك المرحلة من بدء التشكل الحدودي القومي)، أن يتابعوا تفوقهم، المتسم ببصمة حضارتهم المتميزة على العالم في الشرق والغرب، وهذا ما قاله المستشرق براستد: إنّ " العمران ولد في الشرق.. وقد أنجب أمماً عزيزة الجانب أوتيت الكلمة وفصل الخطاب، بينما كانت أوربا العصر الحجري قد سقطت في مهامة الجهل والأمية لاتعرف شيئاً عن الكتابة والمعادن.. ماذا فعل الشرق القديم للجنس البشري في هذه الحقبة الطويلة؟.. لامراء في أنّه حبا العالم بالصناعات الأولى التي بلغت درجة عالية من الإتقان .. نفح العالم باختراعات جمة مهمة لايفوقها إلاّ اختراعات هذا العصر[42]. هذا التأثير كلّه كان مصحوباً باللغة العربية، "السريانية"، التي كانت لغة تجارة العصر

40 - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ط2، ج 1، دار العلم للملايين، بيروت 1976، ص 210

41 - Rossi , 0p,cit. p.26

42 - براستد، مرجع سابق، ص 38.

آنذاك، بقوتها وتفوقها وامتدادها إلى الهند شرقاً والقوقاز غرباً وبحر العرب والمحيط الهندي جنوباً[43].

ومع هذا التفوق العظيم الواسع الانتشار، الذي أكده المستشرق الفرنسي بيير روسي بقوله الواضح الصريح: " إن الحضارة العربية قد بسطت منذ فجر الزمان معرفتها الحياتية على مجموع الأراضي الممتدة بين وادي الهندوس إلى نهر التاج في البرتغال، ومن النيل الأزرق إلى البلطيق التي لم تكن حضارة اليونان والرومان سوى انعكاس لها[44]. إلاّ أنّ ظروف المرحلة حملت معها ملامح التراجع، لتبرز شعوباً وحضارات أخرى جديدة. ذلك التراجع الذي حمل أسبابه الذاتية المعنية بالداخل العربي من جهة و أسبابه الموضوعية العامة المعنية بالقوى الخارجية الجديدة، من يونان ورومان وفرس وغيرها..، ومصالحها وأطماعها في المنطقة العربية وكنوزها التي لاتنضب، لتتابع من هذا الموطن الأصل مسيرتها الحضارية الجديدة.

في تلك المرحلة من التاريخ العربي، وفي تلك الظروف العالمية المستجدة، أخذت ملامح الحدود الجغرافية للوطن العربي تبدو أكثر وضوحاً، مع ملاحظة استمرار حفاظها على استراتيجية هذه الحدود بالأبعاد كلّها الجغرافية والسياسية والاقتصادية والحضارية، وهذا ما ورد في القاموس الكلداني – العربي بحسب مايأتي: .. إن البلاد السورية، أو السريانية، كانت تقسم في العصور القديمة إلى قسمين عظيمين، شرقي وغربي، وأتت تلك القسمة وفق ثلاثة أوجه هي، طبيعية ومدنية وكنسية، فالبلاد السريانية الشرقية وفق الوجه الطبيعي كانت تشتمل على البلاد المحدودة بنهر الفرات غرباً جميعها، وبلاد الأرمن شمالاً، ومملكة العجم شرقاً، والخليج العربي وجزيرة العرب جنوباً.. سميت في التواريخ الحديثة بسورية

43 - لفسكايا نينا بيغو، ثقافة السريان في القرون الوسطى، ترجمة خلف الجراد، دار الحضارة، دمشق، 199، ص 313.

44 - Rossi, op,cit ,p 9

الخارجية، أمَّا البلاد السريانية الغربية فتشتمل بحصر الكلام على ما وراء نهر الفرات إلى البحر المتوسط، أي البلاد المعروفة اليوم بسورية؛ ولذلك دعيت سورية على وجه الإطلاق أو سورية الداخلية. ويتابع القاموس التقسيم المدني لديه ليوضح بأن البلاد السريانية كانت تمتد أينما امتدت الدولة الفارسية، والبلاد السريانية الغربية كانت محصورة في حدود المملكة الرومانية. أمَّا القسمة الكنسية فتكاد لاتخالف القسمة المدنية، فإن سلطة بطركية بابل كانت تشمل القسم الشرقي من بلاد الجزيرة، أي نصيبين ولواحقها... وقسماً من بلاد أرمينيا وآشور وماري وفارس وبلاد العرب والهند والصين أيضاً. أمَّا البطركية الأنطاكية.. فلم تكن مسؤولة إلاّ عن سريان القسم الغربي من الجزيرة وسورية الداخلية فقط أي سورية الشامية التي ستبرز بتسميتها بلاد الشام في العصور الوسطى[45].

سادساً- الدور التاريخي العربي في العصور الوسطى:

ضمن الحدود التي وردت في القاموس الكلداني – العربي، توسّطت جزيرة العرب "الوطن العربي" وتحكّمت بطرقه التجارية: الشمالية في بلاد الشام والجنوبية عند اليمن وحققت ازدهاراً اقتصادياً وسياسياً وثقافياً مهماً، مكّنها من الحفاظ على الكيانات السياسية العربية التي ازدهرت على أطرافها مدة من الزمن مثل سبأ ومعين وحمير في جنوبها، و كندة والغساسنة والمناذرة والبتراء وتدمر في الشمال والوسط، وقد احتلت تدمر حينها مركزاً تجارياً مرموقاً امتد من الخليج العربي إلى البحر الأبيض المتوسط، وبلغ سلطانها مصر وآسية الصغرى. ولذلك شكل سقوطها حداً فاصلاً في تاريخ المنطقة، لأنّه مع نهايته تلك انتهت مرحلة ظهور مدن القوافل

45- محمد نجاح، سورية وصيرورة حدودها الجيو-حضارية والقومية عبر العصور، مجلة الفكر السياسي، اتحاد الكتاب العرب دمشق، العدد صيف 1999، ص 96 .

التجارية على أطراف الجزيرة العربية[46]. ليأخذ المدّ الفارسي والروماني يدهم في مناطق عديدة من الوطن العربي، وإن كان خلال مدة محدودة، لم تلبث أن انتهت مع بدايةٍ عربية جديدة في القرن السابع الميلادي هي ظهور الإسلام في قلب الجزيرة العربية، ولتسفر بحسب تعبير أحد الباحثين الغربيين: عن امبراطورية جديدة ولا أوسع، وعن حضارة و لا أسطع، وعن مدنية ولا أروع، عوّل عليها الغرب في تطوره الصاعد و رقيه البنّاء[47]. فقد استطاع الإسلام أن يؤكد المكّونات والروابط التاريخية العربية، ويحافظ على السمات القومية للأمة العربية بأبعادها كلّها التاريخية، ولاسيَّما اللغة العربية، فضلاً عن أنّ الإسلام وضع لها إطارها السياسي الموّحد.

لاشك أنّ سمة الإسلام قد غدت آنذاك سمة العرب، لكنها لم تعنِ ولا يمكن أن تعني أنّ الذاتية العربية قد زالت، أو يجب أن تزول أو يمكن أن تزول بها، فهي مستمدة من واقع ذاتي قائم لايجوز المكابرة فيه بتميزها في اللغة والخصائص والموطن[48]...فانتشار اللغة هو انتشار لسلطان العرب الروحي والثقافي والأدبي والاجتماعي، وفي هذا كلّه توطيد لشأنية العرب في المجتمع الإسلامي الواسع[49].

بعد قيام الامبراطورية العربية الإسلامية بامتدادها الواسع، يمكن القول: إنّه ليس مصادفة أن تتطابق حدود هذه الامبراطورية مع حدود الامبراطورية العربية السريانية الآرامية[50]، التي امتدت مثلها كما رأينا، من الأطلسي غرباً حتى الصين شرقاً، ومن

46 - الدوري عبد العزيز، التكوين التاريخي للأمة العربية، دراسة في الهوية و الوعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1984، ص27.

47 - بروي ادوار، القرون الوسطى، المجلد 3، من سلسلة تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف داغر و فريد داغر، منشورات عويدات، بيروت- باريس، ط2 1986، ص109.

48 - دروزة محمد عزة، نشأة الحركة العربية الحديثة، المكتبة العصرية،صيدا – بيروت 1949، ص40.

49 - المرجع السابق، ص46.

50 - Rossi, op,cit, p 243

القوقاز شمالاً حتى بحر العرب والمحيط الهندي جنوباً، ضامة سواحل إفريقية والمتوسط كلّها، ومثيرة لدى لاهوت السيطرة في أوربا، على حد تعبير المستشرق الفرنسي روجيه غارودي، مشاعر القلق والخوف من قوتها العسكرية السياسية ومشاعر النقص من تفوقها الحضاري المذهل، كما يؤكد مونتغمري واط[51].

كذلك ليس من باب المصادفة، أن تتطابق دائرة الحدود الجيو- حضارية للتأثير العربي الإسلامي مع دائرتها للتأثير السوري السرياني السابق. وليس مصادفة أن يضيء العرب السريان المسيحيون عصور الظلام في أوربا والشرق في العصور القديمة، وأن يضيئها العرب المسلمون في العصور الوسطى. وهذا ما قاله بيير روسي: " إنّ الإسلام لم يكن عليه أن يخوض صراعاً عقائدياً كبيراُ ليسود، إنّ العرب لم يكن عليهم أن يخوضوا حرباً عسكرية ليأخذوا الشرق والمتوسط، لأنهم كانوا في وطنهم، فيهما منذ بداية الأزمان[52]. لكنّ الواقع، قد برهن بأنّ حركة البشر، ومسيرة الكون، ليست من صنع المصادفات، لأنّ صيرورة التاريخ قائمة على قوانين الطبيعة والعلم، كما سبق إيضاحه، ولاشيء يأتي من الفراغ، والتاريخ العربي هكذا ليس من فراغ، إنّه سلسلة متوالية من البناء الحضاري مستمرة إلى يوم بزغ فجر الإسلام وانتشر، فأتى كل ما حققه من توسع وازدهار كبيرين في شتى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية وغيرها..، نتاج ذلك العمق التاريخي العروبي الحضاري الشامل، بشكل جديد متفق وظروف العالم المستجدة. فشهد العرب في تلك المرحلة الممتدة من ظهور الإسلام، حركة تحرير ووحدة، بعيداً عن العنصرية والعرقية، ولا نغالي إذا قلنا: إنَّ ما حصل كان نتاجاً لفكر يستهدف ويستشرف أعمق

51 - واط، مونتغمري، تأثير الاسلام في أوربا في العصر الوسيط، ترجمة حسين أحمد أمين، " فضل الإسلام على الحضارة الغربية"، دار الشروق، بيروت، 1983، ص 43 ومايليها ثم ص 58.

52 - Rossi, op,cit, p 33

الأفكار القومية ذات المحتوى الإنساني النبيل وأرقاها[53]. رقيها المستمد من شموليتها لشتى الميادين والأمم وحضارات العالم كلّها، وفي هذا يقول المستشرق غوستاف لوبون: " ولا نرى في التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب"[54]. وبفضل ما سبق كلّه، استطاعت الدولة العربية الإسلامية أن تستكمل طابعها العروبي المستقل بإنجازين كبيرين هما: نجاحها في تعريب مؤسساتها المحررة من الفرس والروم، وسك عملتها الخاصة عوضاً عن العملة الرومانية السابقة التداول. وبهذا تكون الأمة العربية، قد وصلت في مسارها التاريخي إلى المستوى الذي يحقق اكتمال خصائصها القومية المتميزة، مادة وروحاً وعلماً وثقافة.

وهكذا لم يكد ينتهي القرن الحادي عشر الميلادي إلاّ وكانت الأرض العربية الممتدة من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي مغطاة بجماعة بشرية واحدة تتفاعل سوياً، كما لم تعرف الامبراطوريات المعاصرة حينئذٍ هذا المستوى من التفاعل والامتزاج، وتتكلم لغة واحدة وتستقبل يومها وغدها بفكر واضح وأهداف شبه محددة، مع الاختلافات والتجزئة التي أصابت هذه الرقعة في ميدان السلطة والحكم[55].

لاشك أنّ هذه الثغرات في الكيان السياسي العربي، قد شكلت بداية خطيرة لأطماع الغرب، تمثلت بالحملات الصليبية على الوطن العربي بين عامي 1096-1291م، وسببت لحركة التطور العربي ولقوى المجتمع العربي الحديث، فيما بعد، الكثير من الأضرار وحققت للقوى المعادية للعروبة كثيراً من الأهداف مدة تزيد عن القرنين من الزمن. ومع ذلك فإنّ العروبة والإسلام معاً استطاعا أن يشكلا عامل قوة

53 - عمارة محمد، العرب يستيقظون، فجر اليقظة القومية،ج 1، دار الوحدة بيروت، 1981 ، ط3 ص51.

54 - لوبون غوستاف، حضارة العرب، ج2، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى الحلبي، 1983 ص564.

55 - عمارة، ج 1، مرجع سابق، ص 242 .

جديدة لمواجهة الخطر الصليبي، مكّن صلاح الدين من تحرير عكا سنة 1161م من سيطرة الصليبيين. كما تمكّن الظاهر بيبرس بما لديه من قوة عسكرية مميّزة، من صدّ الحملة المغولية الأولى في شمال فلسطين 1260م. ليستمر دور الدولة العربية الإسلامية قائماً، ضمن ظروفها الجديدة، إلى القرن الرابع عشر ميلادي، لتتعرض بعدها الأمة العربية إلى سلسلة من النكسات والانحدارات والتراجعات. لكن خساراتها السياسية تلك لم تفقدها هويتها العروبية وطموحاتها في بناء مجتمع جديد يمكّنه من استرجاع قوة البناء التاريخي العربي الصحيح.

بعد هذا النهوض الحضاري، والمدّ الواسع الذي شملته الدولة العربية الإسلامية، يمكن القول: إنَّ الأمة العربية في تلك المرحلة من تاريخها الممتدة منذ نهايات العصور الوسطى وحتى بدايات العصور الحديثة، قد حققت خصائص قوميتها العربية الواحدة مع تعدد القوى السياسية الإسلامية الحاكمة، التي سادها نظام اقتصادي – اجتماعي طغى عليه نمط الإنتاج الإقطاعي وقوانينه، وفي الوقت ذاته تميز بوجود قوى اجتماعية أخرى عملت في التجارة، جمعتها مؤثرات وعوامل وظروف وملابسات جعلتها أكثر ثوريةً وتقدماً من القوى التقليدية صاحبة المصلحة الحقيقية في تجزئة الإقطاع، وهذا ما أشار إليه الباحث محمد عمارة في كتابه "العرب يستيقظون، فجر اليقظة القومية الجزء الأول" منه بقوله: "لقد كان للإقطاع العربي، ملامح لاتتسق مع التجزئة ولا تعادي الانصهار القومي كما كان الأوروبيون"[56]. إنّ القوى التي زخر بها مجتمع الإقطاع العربي هي نفسها التي امتلكت النظام التجاري العربي، وجعلت من المراكز الاقتصادية العربية الإقليمية مراكز قومية في معظم الأحيان، كما أن المدارس الفكرية والمراكز الثقافية لم تكن -في الأغلب الأعم- إلاّ مراكز قومية يرتوي منها العرب في كل مكان[57].

56 - عمارة ج1 ،المرجع السابق، ص 256.

57 - المرجع السابق، ص 257.

إنّ هذا الواقع العربي بكل قوة خصائصه القومية، وواقعه الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي، هو الذي قاوم التفكك السياسي والتجزئة، وقيام الدويلات..وساعد على مواجهة الأخطار الخارجية، والصمود أمام السياسات الإقليمية والشعوبية التعصبية، والحفاظ على الحضارة العربية، وقسماتها القومية، واستمرارها إلى اليوم مقاومة متحدية، ظروف العالم بمستجداته ونكساته كلّها، لأنها مستندة إلى تاريخ حضاري حقيقي راسخ الجذور والأبعاد.

النتائج:

- تنبعث أهمية التاريخ، من أنَّه علم موسوعي، شامل لمختلف جوانب الحياة الإنسانية، وفي مجالاتها كافة، يتابع مسيرة أوضاع البشر زماناً ومكاناً ويرصد أحوالها تقدماً ورجوعاً أو مراوحة، ضمن الظروف الخاصة لكل مجتمع ومرحلة، وذلك إذا ما استُخدِمَتْ مادته بموضوعية في إثبات الوقائع، ووفق أصول علمية صحيحة تساعد على كشف الحقائق بعيداً عن التزوير والتشويه و تقييم الأدوارالحضارية للشعوب، كل من موقعه ودوره في مسيرة تاريخ العالم.
- وفق المقاييس العلمية المتاحة إلى الآن، فيما يخص علم التاريخ، واستخدامها في رصد التاريخ العربي، يتضح أن التاريخ العربي قد نشأ منذ بدايات التاريخ البشري، على الأرض العربية الممتدة عبر المشرق، وتطور في بيئة ملائمة للارتقاء الحضاري، الغني والمثمر بأبعاده كلّها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والروحية. فكان بذلك نشوء أمة العرب وتشكلّها...التي استمدت من هذا التاريخ الأبعاد الحضارية المتميزة وفق سمات ذاتية وهوية قومية خاصة، ميّزت العرب وتاريخهم عن غيرهم من الشعوب والقوميات، ولاسيَّما "اللغة العربية" التي شكلت الخزان الثقافي والمعرفي والروحي عبر الزمان وحافظت على العروبة واستمرار تاريخ الأمة.

- إن الخصوصية التاريخية العربية بكل ماقدمته للإنسانية من عطاء حضاري عبر الزمن، وبكل ما امتلكته من ثروات وعطاءآت، جعل منها محطاً للأطماع الأجنبية من غرب العالم وشرقه، في فترات ومراحل مختلفة من تاريخهم، لم تتوقف، مما سبَّب لها نكسات خطيرة استهدفت وجودها، تجزيئاً وإضعافاً، ونموذجه الأخطر ما يعاني منه العرب اليوم.
- ساعد الموقع الجغرافي المتميّز للوطن العربي، في وسط العالم عبر التاريخ، وامتلاك العرب لأهم طرق التجارة في العالم، وعبر الزمن، على زيادة قوة العرب في مقاومة الأطماع الأجنبية من جهة، والحفاظ على الأمة من التمزق والضعف بما لديها من خصائص مشتركة من جهة أخرى.
- من المهم ذكره، أنّه مع التراجعات والنكسات كلّها التي مرت بها الأمة العربية وما تعيشه اليوم من مؤامرات خارجية وداخلية على وحدتها بل واستمرارية وجودها، فإنّ مجرد عقد الحوارحول التاريخ عامة ومنه العربي تحديداً، المستند إلى وعي وفهم صحيحين للتاريخ، وتبادل الرأي فيه، والسعي إلى سبر أسباب نكسات الأمة العربية، بموضوعية ووعي للذات العربية. يعدُّ مؤشراً إيجابياً يساعد على تتبع الخلل والخلاص منه، ومن ثمّ النهوض ومتابعة المسيرة التاريخية المعطاء للإنسانية كافة.

المصادر والمراجع

1- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم والملـوك، ج 1، ط4، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت 1983.

2- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلـدون، مؤسـسة الأعلمـي للمطبوعات، بيروت، دون تاريخ.

3- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلـدون، مؤسـسة الأعلمـي للمطبوعات، بيروت، دون تاريخ.

4- البغدادي السويدي، محمد أمين، سبائك الذهب في معرفة قبائل العـرب، دار إحياء بيروت، دون تاريخ.

5- الطالبي، محمد، منهجية ابن خلدون، دار الحداثة، بيروت عام 1981.

6- الدوري، عبد العزيز، التكوين التاريخي للأمة العربية، دراسـة فـي الهويـة والوعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1984.

7- بروي، ادوار، القرون الوسطى، مجلد 3، من سلسلة تاريخ الحضارات العـام، ترجمة يوسف داغر وفريد داغر، منشورات عويدات، بيروت وباريس، ط2، 1986.

8- باسكيز، ادولفو، البنيوية والتاريخ، ترجمة مصطفى المنـاوي، دار الحداثـة، بيروت 1981.

9- براستد، جايمس هنري ، العصور القديمة، ترجمة داوود قربان، مؤسسة عز الدين، بيروت 1983.

10- بيكون، غويتان، آفاق الفكر المعاصر، نصوص مختارة عن مجموعة مؤلفين بإشراف بيكون، دار عويدات، بيروت.

11- بيطار، نديم، حدود القومية، نقد عام، دار الوحدة، بيروت 1982.

12- تيزيني، طيب، الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى، دار دمشق، 1986.

13- تيزيني، طيب، من التراث إلى الثورة، ط 3، دار دمشق 1979.
14- ده سوسير، فرديناند، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي ومجيد نصر، لبنان 1984.
15- روسي، بيير، ومجموعة من الباحثين، 1976 .
16- زريق، قسطنطين، نحن والتاريخ، ط 5، دار العلم للملايين، بيروت 1981.
17- عمارة، محمد، العرب يستيقظون، فجر اليقظة القومية، ج1، ط3، دار الوحدة، بيروت،1981.
18- عزة دروزة، محمد، تاريخ الجنس العربي، المطبعة العصرية، بيروت، 1959.
19- عزة دروزة، محمد، نشأة الحركة العربية الحديثة، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1949.
20- علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ط2، دار العلم للملايين، بيروت 1976.
21- سيمون، بيير هنري، الفكر والتاريخ، ترجمة عادل العوا، منشورات المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم، المطبعة الهاشمية دمشق 1963.
22- صباغ ليلى، المرأة في التاريخ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1975.
23- كوفان، جاك، الوحدة الحضارية في بلاد الشام، ترجمة قاسم طوير ط1، دمشق1984 .
24- كوفالزون، و م كيللي، المادية التاريخية، المدرسة العليا موسكو 1962، ترجمة أحمد داوود، دار الجماهير ط1، دمشق 1967.

25- لوتسكي، فلاديمير، تاريخ الأقطار العربية الحديث، أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي، معهد الاستشراق، ترجمة عفيفة البستاني، دار التقدم موسكو 1971.
26- مروة، حسين، النزعات المادية في الفلسفة الإسلامية، ج1،ط4، دار الفارابي بيروت 1981، ص5.
27- محمد، نجاح، القومية العربية في تاريخنا القديم، الجذور والصيرورة، مجلة المعرفة، دمشق، العدد 356، أيار 1993.
28- محمد، نجاح، سورية وصيرورة حدودها الجيوحضارية والقومية العربية عبر العصور، مجلة الفكر السياسي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد صيف 1999
29- محمد، نجاح، علم التاريخ إشكاليات ومضامين، مجلة المعرفة السورية، العدد 384، أيلول 1985.
30- محيسن، سلطان، عصور ما قبل التاريخ، دار المستقبل، دمشق، 1986.
31- دروزة محمد عزة ، نشأة الحركة العربية الحديثة، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، 1949.
32- لفسكايا، نينا ديغو، ثقافة السريان في القرون الوسطى، ترجمة خلف الجراد، دار الحضارة دمشق 1990.
33- هرنشو، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي، دار الحداثة بيروت 1982.
34- واط، مونتغمري، تأثير الإسلام في أوربا في العصر الوسيط، ترجمة حسين أحمد أمين، " فضل الإسلام على الحضارة الغربية"، دار الشروق، بيروت 1983.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2012/6/19